

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

عبد القادر الجزائري أمير الشام

Abdul qader ql-jazaery prince of al sham

منذر محمد الحايك. Munther Mohamed Al-Hayek.
أستاذ جامعي متقاعد. متفرغ للبحث العلمي
Retired university professor. Dedicated to scientific research
E- monzer.hayek@gmail.com

تاريخ القبول : 2021-10-20

تاريخ الاستلام: 2021-10-15

المخلص

يهدف البحث لتبيان أثر مدينة دمشق في تحول شخصية الأمير عبد القادر الجزائري من قائد عسكري إلى مفكر ومعلم ووجه اجتماعي ثم زعيم سياسي، من خلال تفصيلات حياتية للأمير خلال إقامته بدمشق، منها: دعوى انتسابه للماسونية ودوره في الفتنة ضد المسيحيين ودوره السياسي العالمي المتنامي. وانعكاس كل ذلك على شعبيته ومحبة الناس له في دمشق المدينة التي اختارها ليزرع جسده فيها شجرة محبة وسلام.

الكلمات المفتاحية: عبد القادر الجزائري. دمشق. ابن عربي. الماسونية.

Abstract:

The research aims to show the impact of the city of Damascus on the transformation of the personality of Prince Abdul Qader Al-Jazaery from a military leader to a thinker, teacher, social leader and then a political leader, through the details of life. During his stay in Damascus, including: his claim to belong to Freemasonry, his role in strife against Christians, and his growing global political role. And the reflection of all this on his popularity and the people's love for him in Damascus, the city he chose to plant his body there as a tree of love and peace.

Keywords: Abdelkader Algerian. Damascus. Ibn Arabi. Freemasonry

أفتدّتهم، فهم بوعي أو بدونه لحقيقة أن أجناد الشام هي التي حرّرت وعربت المغرب، كانوا يشعرون بدّين خاص نحو الشام، فكان هناك تواصل مستمر بين المغاربة والشام لم ينقطع، ومن الغريب أنه كان أقوى من تواصل المغاربة مع مصر².

فمن المعروف أن المغاربة تدفقوا بكثرة إلى الشام في عصر الحروب مع الفرنجة كمجموعات وأفراد، ولأسباب مختلفة، ربما كان من أهمها الجهاد في سبيل الله، مثل: خروج الشيخ يوسف بن درباس الفندلاوي المغربي من دمشق، عندما حاصرها الفرنج في الحملة الثانية عام 543هـ/1149م، وقتاله لهم رغم شيخوخته، مما أدى إلى استشهاده³. ويركز الرحالة المغربي ابن جبير في مرويّات رحلته على دور المغاربة في الحرب ضد الفرنجة زمن صلاح الدين، ويقول: "أن الضرائب التي يتقاضاها الفرنج على مرور التجار المغاربة أعلى بكثير من الضرائب المفروضة على غيرهم"، ويعلل ذلك بنكايهم في الفرنج⁴، ومما يؤكد قوله أن رسول الفرنجة إلى صلاح الدين،

1- مقدمة:

أي سر في دمشق؟ أي سر في هذه المدينة؟ استهوت العظماء فانتموا إليها وأحبوها ودافعوا عنها، وسطروا منها وحولها ملاحم خالدة. اجتذبت العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، فأموها وكتبوا في أحضانها أسفاراً خالدة في كل مناحي العلم، وكتبوا عنها وعن فضائلها، وقالوا فيها ما لم يكتب أو يقال عن مدينة قط. ليس مثلها مدينة في الدنيا احتضنت من الأنبياء والصحابة والصالحين، ففيها مزارات ومدافن مقدسة ما لم يوجد في غيرها. هذه هي دمشق التي سنذكر عظيم من عظمائها أحبها وأحبته، وإن كان لا ينتسب إليها بالمولد فهو ينتهي إليها بالاختيار، إنه عبد القادر الجزائري الشامي.

2- المغاربة في الشام¹:

كان المغاربة منذ القدم تستهويهم الشام فيقصدونها، فلدمشق بالذات، وللشام بشكل عام، وقع خاص في

بعض رجالها، وفضل دمشق لإقامته الدائمة كمنفى بعد وطنه، حتى على المدن المقدسة التي يعرفها ويحبها. إن لهذه الزيارة التي لا نعرف الكثير عنها دور مهم في اختياره لمنفاه من خلال ما تركته في نفسه من انطباعات جميلة، فلا بد أنه لمس ما في دمشق من آفاق رحبة، وفكر متفتح، فأمل أن تكون التربة الخصبة لما يحلم به من مشاريع وأفكار.

4- بداية الطريق إلى دمشق:

بعد أن أنزل الأمير عبد القادر بالقوات الفرنسية هزائم قاسية، تمكنوا أخيراً من دخول عاصمة الأمير "مدينة معسكر" وإحراقها، فاضطر الأمير إلى التفاوض على الاستسلام على أن يسمح له بالهجرة، وتلقى وعداً بذلك، فاستسلم ورجل على ظهر إحدى البوارج، وإذ به يجد نفسه في إحدى السجون الحربية بفرنسا. في تلك الأثناء كان نابليون الثالث زعيماً في المعارضة الفرنسية، وكان يعلن: أن فرنسا خانت الأمير، وإنها نكلت بوعودها له، وعندما انتخب نابليون الثالث رئيساً للجمهورية الفرنسية، ثم صار إمبراطوراً، أطلق سراح الأمير في عام 1852م وخيره في انتقاء مكان لإقامته، فاختار الدولة العثمانية¹⁴.

وصل الأمير الأستانة عن طريق صقلية عام 1853م، وفور وصوله قام بزيارة ضريح الصحابي "أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري" خارج سور المدينة، ثم توجه للصلاة في جامع آيا صوفيا. وكان بانتظاره الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا الذي أحسن استقباله وأكرمه، ودعاه لمقابلة السلطان عبد المجيد الأول الذي رحب بالأمير، وامتدح جهاده. وبعد أيام غادر الأمير عبد القادر الأستانة إلى مدينة بورصة لتاريخها العريق ومناظرها الجميلة، فاستقبله فيها خليل باشا صهر السلطان. ومع أن الأمير نعم بالهدوء في هذه المدينة وحظي بكل تقدير واحترام إلا أنه كان دائم الإحساس بالغربة، ولعل ذلك، كما ذكر بعض من كتب عنه، يعود إلى أنه لم يكن بينه وبين الأتراك محبة، فعلماءهم كانوا يحسدونه بل ويكرهونه لعلمه، ووجهاءهم قلما يتنازلون لملاحظته. وبعد أن أقام الأمير في مدينة بورصة حوالي السنتين طلب من الإمبراطور نابليون الثالث ومن مضيفه السلطان العثماني أن ينتقل إلى دمشق، وتمت الموافقة فتوجه الأمير إليها عام 1855م¹⁵.

5- لماذا دمشق؟

أثناء حصارهم لعكا، جاء ومعه أسير مغربي كهديّة، فاهتم به صلاح الدين⁵. كذلك يقول ابن جبير أن المغاربة البحريين أنجدوا القوة البحرية التي شكلها الأمير لؤلؤ لرد غزوة الفرنجة في البحر الأحمر، والتي كانوا ينوون الوصول فيها إلى المدينة المنورة⁶. ويبدو أن شهرة المغاربة بمعاونة البحر قد أدت للاعتماد عليهم لسد حاجة الأسطول⁷. ويذكر أن أهل الشام كانوا يخصصون أوقافاً لتحرير أسرى المغاربة، مما يدل على كثرتهم ومحبة الشاميون لهم⁸. وقد قدر المقرئزي أعداد المغاربة الذين يقومون بتقديم خدمات للجيش الأيوبي بأكثر من ثلاثة آلاف مغربي⁹. وربما لتعاظم دور المغاربة المتطوعة للجهاد فقد أوقف الملك الأفضل بن السلطان صلاح الدين حياً خاصاً في مدينة القدس، يقع بجوار المسجد الأقصى، لسكن المغاربة، حتى صار يُعرف بحارة المغاربة¹⁰. وهذا دليل على أهمية دور المغاربة في الحروب ضد الفرنجة، ولكنه يبقى دور شعبي وبمبادرات فردية تلبية لفريضة الجهاد¹¹.

وحق الآن يجد المتجول في شوارع مدن الشام كنية المغربي عامة، والجزائري خاصة، تتواتر كثيراً على واجهات المحلات التجارية ولافتاتها، وهي كنية معروفة تماماً في كل مدن الشام، وبالتأكيد هي دلالة واضحة على سكّنى المغاربة للشام منذ القدم.

3- زيارة الأمير الأولى لدمشق:

خرج الأمير عبد القادر مع والده معي الدين لأداء فريضة الحج عام 1825م، فكان طريقهم على تونس فيمصر ثم الحجاز، ومنها نحو دمشق فيغداد، ثم العودة إلى قريتهم "قيطنة" في الجزائر عام 1828م. لقد كانت الرحلة، بالنسبة لهذا الشاب الذي لم يبلغ العشرين من عمره، رحلة علم وتعرّف على بلاد الإسلام ورجالها وعلمائها في ذلك الوقت، ففي دمشق لقي من الشيوخ والعلماء أمثال: المحدث عبد الرحمن الكزبري، وفيما بعد التقى محمود الحمزاوي، ومحمد الخاني¹². وفي طريقه إلى بغداد أقام في ضيافة الشيخ محمد زكريا قاضي تدمر عدّة أشهر¹³، وهذا التوقف الطويل في تدمر يجعلنا نختار في تقدير أسبابه، التي لا بد أنها تعود لوالد عبد القادر أكثر مما تعود إليه.

وهنا نتساءل: هل كان لزيارة عبد القادر الأولى لدمشق أثر في اختياره لها فيما بعد للإقامة الدائمة؟ ونعتقد أنه لا بد من وجود أثر كبير لهذه الزيارة في اختياره لدمشق، فقد جال عبد القادر معظم أقطار المنطقة، وتعرف عليها وعلى

بين الوجهاء والعلماء، ومنذ قدومه إلى دمشق تبوأ فيها مكانة تليق به كزعيم سياسي وديني وأديب وشاعر، وغدا عالم الأمراء وأمير علماء دمشق¹⁹.

ومع أن السلطة العثمانية لم تعد تهتم به، بل ربما عدته ضيفاً ثقيلاً، وذلك لتجمع مئات الجزائريين حوله يحرسونه ليلاً نهاراً، ولما أحاطه به الوطنيون من أهل دمشق، من احترام وعدّوه رمزاً للجهاد والتحرر، واهتمام العلماء الذين عدوه عالماً واسع المعرفة، فالتفت حوله حلقة من طلبة العلم أدهشهم سعة أفقه في مختلف العلوم: في الفقه، والحديث، والفلسفة، والتاريخ، فكانت له مشاركة بارزة في الحياة السياسية والعلمية²⁰.

استمرت إقامة الأمير في دمشق من عام 1856م إلى وفاته عام 1883م، أي مدة 27 سنة، قضاهما ما بين منزله في العمارة وبين قصره الصيفي الذي تملكه عام 1871م في ضاحية دُمر، وهو يطل من الجهة الغربية على نهر بردى وطريق بيروت وسكة الحديد، بينما يحده القصر من الشرق واحد من فروع بردى السبعة هو نهر يزيد. وهذا القصر ليس مجرد تذكاري مكاني بل هو شاهد على مسيرة حافلة طبعت سيرة هذا الزعيم العربي، فقد شهد القصر حوادث تاريخية واجتماعات ملوك وأمراء عرب وأجانب، مما يؤرخ لحضوره الاجتماعي والسياسي في المجتمع الدمشقي على مدار أكثر من ربع قرن²¹.

7- أثر دمشق في شخصية الأمير:

كانت دمشق في كل أطوارها بلداً مشرع الأبواب أمام كل تيارات الفكر، فهي ذات مجتمع تجاري بحت، فيها من صغار المتسوقين حتى أصحاب التجارات العالمية. والاختلاط، الذي تفرضه التجارة، يُعرّف على الآخر وثقافة الآخر، ويولد التسامح. بينما تكون المجتمعات المنغلقة متعصبة، لأن الإنسان عدو ما يجهل. وربما كان هذا من أهم دوافع الأمير لاختيار دمشق لإقامته ولنشر أفكاره، وأهم دليل على نجاحه في اختياره، أنه تحول فيها إلى شخصية عالمية. ففي دمشق فقط كان من الممكن أن تتبلور هذه الشخصية الفريدة، لقد امتلك الأمير شخصية قيادية بالفطرة، مع قيم روحية عظيمة وفكر منفتح، وكل ذلك تم صقله في دمشق. فقد أتاح له تسامح وانفتاح دمشق أن يجسد أفكاره ويطبّقها، ففي غير دمشق، في ذلك الوقت، هناك شك كبير أن يتمكن الأمير من فعل ما فعله.

كان هناك هزة عنيفة في حياة الأمير عبد القادر، فالهزيمة ثم الأسر زلّلا كيانه، فارتد مستعيناً بظلمة روحه نحو التعلم والتعليم، الذين هم هواياته وتطلعاته وما أحبّ من كل دنياه، ومع أن الاستعمار الفرنسي اضطره لخوض طريق الجهاد، الذي تفوق بل وأبدع فيه، لكنه لم يكن طريقه في الحياة، حيث تدل كلمته حين تمت بيعته للإمارة في الجزائر على عدم ميله للقيادة العسكرية، لكنه قبلها لغايات سامية وهي منع الظلم ولاتحاد المسلمين، قال: "أني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه، مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، وحماية البلاد من العدو، واعلموا أن غايي القصوى اتحاد الملة المحمدية، والقيام بالشعائر الأحمدية، وعلى الله الاتكال في ذلك كله"¹⁶. لذلك بعدما أدى واجبه الجهادي نجده، كما اختار منفاه بكامل الإرادة والتصميم، قد اختار طريقه في الحياة، طريق العلم طريق الفكر والفلسفة. وفي دمشق فقط ودون كل المدن والعواصم العربية الإسلامية، في ذلك الوقت، كان يمكن للأمير أن يحقق ذاته وأن يكون كما أراد.

6- الأمير في دمشق:

صدرت الأوامر إلى والي الشام بأن يعد أفضل استقبال للأمير وأن يهيئ له كل ما يلزم لإقامته في دمشق، ولكن أهل الشام سبقوا السلطة العثمانية وفاقوا كل ترتيباتها لاستقباله، حيث خرج معظم سكان دمشق لملاقاته على مشارف المدينة بكل طبقاتهم، فقد كانت شهرة الأمير قد سبقته إلى دمشق. دخل الأمير دمشق تتقدمه وحدة عسكرية رمزية، وفرقة موسيقية، وتداول الناس وقتها: "أنه منذ مدخل صلاح الدين لم يدخل دمشق زعيم أو قائد يمثل ما دخلها الأمير عبد القادر من محبة وحفاوة"¹⁷. وفور وصول الأمير توجه إلى ضريح الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، ثم توجه إلى مكان إقامته الذي خصصته له الدولة العثمانية في دار عزت باشا في حي العمارة بحارة النقيب، والتي لا يزال فيها حتى الآن آل الجزائري. وقد جاء الأمير مع جالية جزائرية كبيرة إلى دمشق، وقد أسس الفقراء منهم ما سعي برباط المغاربة في منطقة السوقية، ومازال موجوداً إلى اليوم في حي الميدان¹⁸.

لقد وجد الأمير نفسه في دمشق محط الأنظار، فكان محور اهتمام العلماء والفقهاء، وكبار القوم، وأقام الأمير بدمشق منذ عام 1856م بين أهله وفي بلده، وأخذ مكانة فيها

الفيلسوف الوجيه الزعيم الاجتماعي. كان من فراسة الأمير اختياره للمكان الأمثل لإقامته الأخيرة في دمشق التي أحبها، وبإدلتها الحب والإخلاص.

8- المدرس صاحب الحلقات:

بدأ الأمير العالم بالتدريس في الجامع الأموي، وكان موعد حلقة اليوم بعد صلاة الظهر وحتى أذان العصر، وبعد صلاة المغرب وحتى أذان العشاء. ثم ما لبث أن أصبح كالحلقة يتنقل من حلقة إلى أخرى ومن جامع إلى آخر يشرح ويدرس ويعلق، فتجده تارة في المدرسة الجقمقية، وأخرى في المشهد الحسيني أو المشهد السفرجلاني، وثالثة بالجامع الأموي، ثم اشترى الأمير في دمشق داراً خصصها لدروسه وسماها دار الحديث. فتكونت حول الأمير حلقة دارسين مؤلفة من أكثر من ستين طالباً، وكان القرآن الكريم والحديث الشريف أساس الدروس. ولكن خلافاً للعادة فإن الأمير قد أثار استغراب أتباعه وأفرحهم باختياره نصوصاً من أعمال أفلاطون وأرسطو وفلاسفة وأدباء آخرين. وقرأ على طلابه في دمشق كتاب الإبريز لابن المبارك، وكتاب الشفا للقاضي عياض، كما أعاد إلقاء نظم العقائد النفيسة للمرواني وصحيح مسلم، وقد ساعده على ذلك جمعه في منزله لمكتبة علمية أدبية ضخمة²³.

ومع كل إطلالة لشهر رمضان على دمشق كان الأمير يعتكف بالجامع الأموي فتراه المتعبد الزاهد، والعالم الفقيه الباحث المنقب، وكثيراً ما كانت تشغله التحقيقات العلمية للنصوص، فمن خلال إقامته بدمشق استطاع الأمير أن يؤلف موسوعته الجامعة: "كتاب المواقف"، وهو في التصوف وقد طبع في دمشق وفي الجزائر، وأقدم فيه على تناول قضايا هامة في تاريخ الفكر الإسلامي، وعالجها من خلال آراءه الإصلاحية.

9- الأمير على خطى ابن العربي:

لقد كانت لدى الأمير توجهات دينية مسبقة، واهتمام كبير بتاريخ الإسلام والشريعة والعقيدة الإسلامية، وإذا كان التصوف يناسب نشأة الأمير في الجزائر فإنه يناسب أكثر متقاعد سياسي وعسكري له أرضية دينية وثقافة فلسفية يعيش في دمشق. وصحيح أن الأمير كان صوفي الفكر، لكنه كان رجل دين متنور ليس سلفي ولا متعصب، ومثال جميل للصوفييين المرتقين بصوفييتهم، لقد مثل روح الصوفية

ومع نجاحه كمحارب وقائد عسكري فذ فهو لم يُخلق للقتال، بل خلق للعلم والتعلم والتعليم، قال الأمير: "لم أولد لأكون محارباً، ويبدو لي أنه لم يكن لي أن أكونه أبداً... ومع ذلك حملت السلاح طيلة حياتي"²². لقد وجد الأمير عبد القادر نفسه في مدينة العلم والعلوم فتابع مسيرة العلم التي يهواها، فبدمشق تفرغ لشغفه الثقافي في العلم والمطالعة، فكانت دمشق بيئة مناسبة جداً لتطلعاته العلمية والدينية. ففي ذلك الوقت كان يسيطر نوع واحد من الثقافة والفكر الديني في باقي المدن والأمصار الإسلامية، ففي القاهرة أو بغداد مثلاً تجد من جهة سلفية عمياء وتحريم للفلسفة وعدها خارجة عن الدين. ومن جهة أخرى تجد صوفية اتخذت شكلاً أخرجها عن حقيقتها الفلسفية الفكرية، فكانت تقشف وزهد وشعوذة. ومن هنا يأتي دور دمشق في توازنها الفكري الذي صقل إن لم نقل قام بالتكوين النهائي لثقافة الأمير.

في دمشق غرف الأمير ما شاء من تراث الصوفية وفلسفاتها بحرية كاملة، وتوسع بالاطلاع على تراث الشيخ الأكبر معي الدين بن عربي وغاص فيه، فقد كان تراث الشيخ متوفراً بدمشق بشكل منقطع النظير.

إن ماضي الأمير في الجزائر مجاهداً تحريراً أكسبه محبة وقيمة اجتماعية في دمشق لكنها كانت قابلة للتلاشي بعد زمن، إنما تقبله لواقع دمشق واندماجه فيه، ثم انطلاقه منه هو المعجزة أو الانقلاب في شخصية الأمير، حيث تم تحوله النهائي من الوجه المغربي إلى الوجه الشامي. لقد تحول من رجل الدولة والقائد العسكري المحارب إلى العالم المحقق الباحث المعلم، تحول من حومات المعارك في الجزائر إلى حومات الأدب والتاريخ والفلسفة في دمشق، من قائد الرجال إلى معلم الرجال، كان رجلاً متنوراً فتحول إلى مُنَوِّر. وباختصار تحول بدمشق من زعيم وقائد عسكري إلى وجيه مدني، والوجاهة لا تزول، لأن المرء يكتسبها بصفات ومواهب كامنة فيه فلا تزول ولا تتبدل، بينما الزعامة تكتسب بمواهب محددة بظروف غالباً ما تزول.

إنها دمشق، فلولاها ولولا قناعات أهلها، المشرعين أبويهم لكل القادمين بسلام، لما كان الأمير عبد القادر الجزائري إلا قائد عسكري، أو زعيم سياسي وبكلا الأحوال ستنتهي حياته العملية بالتقاعد، وقد يكون أي شيء ولكنه لولا دمشق لما كان كما كان، رجل الدين المتصوف الشاعر

بالشرع، هذب الصوفية من الشطحات، وأرادها صوفية روحية متنورة. إن كتاب "المواقف"، الذي كتبه الأمير في دمشق، هو دليل لأفكاره الصوفية، حيث يعلن إتباعه للشيخ الأكبر ابن العربي ويقدم تحليلاً لبعض مؤلفاته وبالأخص كتاب "الفتوحات المكية".

11- الأمير يرد الجميل لدمشق:

في عام 1860م، وبعد أربعة أعوام من استقرار الأمير في دمشق، حدثت فتنة ضد المسيحيين، فبرزت زعامة الأمير في الشام، حيث كان له دور فعال في حماية أرواح أكثر من 15 ألف من المسيحيين، ورد الجميل لدمشق التي احتضنته فمنع عنها فتنة مدمرة عصفت ببلدان وزلزلته.

على الرغم مما أجراه الأمير من اتصالات مع الوالي التركي "أحمد باشا"، وما بذله من جهود جبارة لاحتواء الفتنة قبل اندلاعها، إلا أن مساعيه لم تُجدِ، فانطلقت شرارة الفتنة بدمشق، جمع الأمير العلماء والوجهاء وقال لهم: "إن الأديان، وفي مقدمتها الدين الإسلامي، أجل وأقدس من أن تكون خنجر جهالة، أو معول طيش أو صرخات ندالة، تدوي بها أفواه الحثالة من القوم"، وبهم يهدؤون الناس²⁷. ومن المعروف بأن الأمير أرسل لوجهاء حمص وحماة رسائل ومبعوثين حول أوضاع الفتنة، وهناك روايات متواترة في حمص عن اتصال الأمير بوجهاء أحياء ورجال دين وحنهم بل أنه طلب منهم بشكل شخصي حماية المسيحيين، وفعلاً تم ذلك فقد اقتدوا بالأمير²⁸. جمع الأمير أتباعه من المغاربة وأرسلهم إلى الأحياء المسيحية لوقف أي اعتداء قد يحصل، وفتح بيته للفارين، بل إنه طلب من جيرانه أن يخلوا منازلهم لتوفير المأوى لهؤلاء المنكوبين، واستمرت هذه الفتنة قائمة أربعة عشر يوماً، كان فيها بيته حياً لقناصل الدول الأجنبية، بينما جعل قلعة دمشق ملجئاً لمسيحي الشام، وقدم لهم فيها كل ما يلزم من ضروريات الحياة، وكان لذلك دور كبير في وقف الفتنة وإطفاء نارها، فرجع عند ذلك عشرة آلاف جندي فرنسي إلى فرنسا بعد أن كانوا في أسطولهم يستعدون لقصف بيروت بالقنابل.

وكان لموقف الأمير عبد القادر الإسلامي الإنساني صدى في الأوساط العالمية، فأتته رسائل شكر مصحوبة بالأوسمة، من كثير من ملوك ورؤساء الدول الأجنبية، ونوهت كبريات الصحف العالمية بمواقفه الإنسانية. جاء في إحدى الصحف مقالة أوردها محمد بن عبد القادر في مؤلفه، قالت

الناصعة وروحها الشفافة، لأنه تمثلها بروحه ولم يفهمها على أنها لباس أو حركات أو سلوك مقلد²⁴.

كانت مرتبة الأمير الصوفية هي الأعلى، فقد حصل على "الخرقة الأكبرية"²⁵، ولا تزال هذه الخرقه ضمن ممتلكات العائلة المتوارثة. وبالرغم من إتباع عبد القادر لطريقة أبيه وجده القادرية، فقد تناول الخرقه الشاذليه في حجة الأولى مع والده، وكذلك النقشبندية، وهذا ما كان شائعاً بين كبار المتصوفة²⁶.

10- الأمير والشيخ الأكبر:

من المصادفات الغريبة توقيت دخول كل من الأمير عبد القادر ومحيي الدين بن عربي المدينة التي اختارها لإقامتهما الأخيرة، فقد دخل الأمير دمشق عام 1856م، ودخلها الشيخ عام 1156م، أي أنه بعد 700 سنة تماماً جاء الأمير يسير على خطى الشيخ الأكبر. إضافة إلى ذلك فإننا نجد كثير من القواسم المشتركة بين الرجلين العظميين على ما باعد الزمن بينهما، فالشيخ الأكبر مغربي أندلسي والأمير مغربي جزائري، والشيخ عربي طائي، والأمير عربي قرشي، وكلا الشيخ والأمير قاما برحلة واسعة شملت عدداً من الأقطار الإسلامية سبقت إقامتهما بدمشق. لكن أهم ما بينهما برأيي هو أن كليهما اختار دمشق، وكان الاختيار مقصوداً بل ومدروساً ولم يأت صدفة، وهو لهدف واضح لكل منهما، اختار الشيخ الأكبر دمشق ليثبت منها رسالة الحب والتسامح، ولينشر عبرها دين الحب، واختارها الأمير ليترجم عملياً مذهب الشيخ في وحدة الأديان ودين الحب والتسامح، واتضح ذلك بحمايته المسيحيين من المذبحة في الشام.

وهنا نتساءل: هل تعرف الأمير على الشيخ في دمشق أم عرفه قبلها؟

بالتأكيد كان الأمير يعرف عن الشيخ الأكبر، فهو صوفي بالفطرة والشيخ من أعلام الصوفية، وسمعة الشيخ كانت ولا زالت واسعة الانتشار في المغرب العربي، ولكني أعتقد أنه لمشاغله الإدارية والعسكرية الملحة في الجزائر لم يكن يعرف عن الشيخ الشيء الكثير، لكن بعد إقامة الأمير بدمشق توسعت لديه المعرفة بآبن عربي بل وتبحر فيه، واختص بمؤلفاته.

وصحيح أن الأمير سار على خطى ابن عربي لكنه سار بخطى المتبصر لا المقلد، أعجب بروح ابن عربي وبدعوته للحب ووحدانية الوجود. لقد كان الأمير في دمشق صوفياً ملتزماً

وزار بها ضريح خالد بن الوليد ونظم له الأشعار، ثم زار ضريح عمر بن عبد العزيز فيها³³.

بعد ذلك قام الأمير بزيارة بيروت ومنها توجه إلى الأستانة، حيث أكرمته الدولة العثمانية، وأظهرت الاحتفال بمقدمه، فقابل السلطان العثماني عبد العزيز، وعرض عليه شفاعته في وجهاء دمشق الذين حكم عليهم الديوان العرفي بالنفي إثر فتنة دمشق إلى قبرص ورودوس، فوافق السلطان وأصدر "إرادة سنية" بإعادتهم إلى بلادهم. ومكث الأمير في الأستانة شهرين، ثم غادرها إلى فرنسا وبعدها أقام أياماً فيها رجع إلى دمشق.

عندما فشلت المقاومة الضارية لثورة الشيخ شامل ضد سيطرة الحكومة القيصريّة على بلاد المسلمين في القوقاز، ووقع شامل في الأسر، طلب الأمير عبد القادر من الإمبراطور نابليون الثالث التوسط لدى حكومة روسيا وقيصرها ليحسنوا معاملة الشيخ شامل الأسير لديهم، وقد لبي الإمبراطور الفرنسي الطلب، وهناك رسائل عدة وجهت للأمير من ابن الشيخ شامل، يشرح فيها معانات أبيه في الأسر، ويطلب معونة الأمير، ثم في رسائل بعدها يشكر الأمير على تدخله، ويذكر تحسن معاملته كثيراً، وكذلك أرسل الشيخ شامل فيما بعد رسالة خاصة إلى الأمير³⁴. ولمكانة الأمير عبد القادر عند السلطان العثماني عبد المجيد، لجأ إليه فرديناند دو ليسبس من أجل إقناع السلطان بأهمية مشروع قناة السويس. وفي عام 1869م دعي الأمير لحضور مهرجان افتتاح القناة، حيث لبي الدعوة ليحضر هذا الحدث التاريخي الهام بجانب الملوك والوزراء من مختلف أنحاء العالم.

13- الأمير والماسونية في دمشق:

انشغل كثير من الكتاب بانتساب الأمير لتنظيم الماسونية³⁵ من عدمه، فبينما نجد من يؤكد هذا الرأي ويدعمه بالوثائق والرسائل المتبادلة بين الأمير وبين رؤساء المحافل، ويقول بأن الأمير قد انتظم في سلك الماسونية في مدينة الإسكندرية عند زيارته لها عام 1864م، وانضم إلى محفل الأهرام التابع للشرق الفرنسي، وأن الأمير كان يجهر بانتسابه للماسونية، ولا يخفي تعاطفه معها. وأن كل أعماله في دمشق بما فيها حماية المسيحيين خلال الفتنة كان يهدمها³⁶.

الصحيفة: "أنه يوجد في ذات عبد القادر أمران: أحدهما الأمير الجزائري العدو المخيف للفرنسيين، والثاني الأمير الشامي المخلص لألوف من النفوس في حادثة دمشق، فالأمير هو الرجل الوحيد الذي ظهر في مكانين بعيدين بصورتين مختلفتين، وأمسى الفرنسيون مدينين له بدين هم مجبرون على أدائه له"²⁹.

12- تطور نهجه السياسي في دمشق:

لم يكن في نية الأمير حين حضر لدمشق أن يتقاعد في أفيائها، أو أن يتحول فيها إلى مجرد عالم ومدرس، بل كان يرغب أن يبدأ نضالاً من نوع آخر، ربما كان أهم وأشهر من النضال العسكري عبر دوره السياسي بدمشق، فقد انتسب إلى جمعية العروة الوثقى، ودعا إلى رفض التقليد الأعشى إن كان للسلف أو للحضارة الأوروبية، وحض على استخدام الفكر والنظر³⁰.

وعندما طرحت صيغة الإمارة العربيّة أثناء الحرب الروسية- العثمانية، وما دار خلال مباحثات معاهدة "سان ستيفانو" ومؤتمر برلين، اقترح قيام إمارة عربية في إطار الخلافة الإسلامية، فأعلن الأمير عبد القادر أميراً مرتقباً على بلاد الشام، لكن مجريات السياسة انحرفت عن هذه الفكرة فلم تتم. لكنه في الواقع كان أمير الشام، كما أنه خلق لنفسه فيها موقعاً على مستوى قادة الدول، فقد راسله أشهر رؤساء العالم وغمره بالأوسمة وكتب التودد، وطلبت منه أكبر المؤسسات العلمية الثقافية العالمية الانتساب إليها³¹. وقد ساعدته دمشق في ذلك بكل طاقاتها، فمن خلال موقعه في دمشق تمكن من التحرك السياسي في دائرة الأحداث عربياً وعالمياً بكل سهولة.

بعد الفتنة وبعد أن هدأت الأحوال وعاد الأمن إلى الناس، قرر الأمير أن يزور حمص، وربما كانت دوافعه لشكر وجهائها على ما التزموا به من دعم لمواقفه في الفتنة، واللقاء برجال وعلماء منها، لا شك بزياراتهم السابقة له، ودعوته لبلدهم، وبالتأكيد كان يفكر بغرس بذرة إصلاح في حمص يمكن رعايتها فيما بعد من دمشق. لكن الأمير صرح بأن زيارته هي للوقوف بحضرة سيف الله خالد بن الوليد، وزيارة ضريح الخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبد العزيز³². وربما كانت من ضمن دوافع رحلة الأمير إلى حمص أن تكون على خطى رحلة الشيخ المتصوف علامة الشام عبد الغني النابلسي إليها، والتي سبق الأمير بها بحوالي قرنين من الزمن،

بعد تحرير الجزائر من الاستعمار طلبت حكومتها عام 1965 من الحكومة السورية السماح لها بنقل رفات الأمير لأرض وطنه، ربما من باب الاعتقاد بأنه آن للغريب أن يعود، وفعلاً تم نقل الرفات، ففي الخامس من شهر أيلول عام 1966 حطت طائرة قادمة من دمشق في مطار الجزائر عاصمة الدولة الجزائرية الفتية التي كانت قد استقلت قبل أربع سنوات، وهي تحمل رفات الأمير عبد القادر الجزائري المتوفي بدمشق عام 1883.

15- خاتمة:

مع أن دمشق لم ترفض طلب الجزائر بنقل رفات الأمير لكنها احتفظت بروحه التي لم تفارقها لحظة. وأبقت ضريحه قائماً مكانه لأنه لم يمس رمزاً للمحبة بينهما، والزائر اليوم لا يشعر بفقدان الرفات فروح الأمير حاضرة، وتقرأ لها الفاتحة مراراً كل يوم من قبل أهل الشام. فدمشق معنوية وروحياً لم تعترف بنقل رفات الأمير، لأنها أولاً لم تُعَدّه، كما أنه لم يكن يعدّ نفسه غريباً في دمشق، وثانياً لأن ذلك تم معارضاً لرغبة الأمير الذي رغب أن تكون إقامته النهائية في روضة الشيخ وكنفه، واختار دمشق دون سائر بلاد الله ليغرس جسده فيها شجرة محبة ووحدرة روحية، فلكل ذلك لا يزال وسيبقى الضريح الفارغ رمزاً للأمير الشام كما كان دائماً.

قائمة المراجع:

- 1- أعلام الصحة الإسلامية، محمد علي شاهين، دار الضياء/ 2007
- 2- الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، يحي بوعزيز، الدار العربية للكتاب، تونس/ 1983
- 3- الأمير عبد القادر الجزائري: متصوفاً وشاعراً، رسالة ماجستير أعدها فؤاد صالح السيد، بإشراف: د. أهيف سنو، جامعة القديس يوسف. كلية الآداب، بيروت.
- 4- الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، د. علي أحمد، دار طلاس، دمشق/ 1989
- 5- الأئمة الجليل، العلي، دار البشائر/ دمشق/ 3.
- 6- تاريخ حمص، الخوري عيسى أسعد، المطبعة البطريركية، حمص/ 1958
- 7- تاريخ الكنيسة في الشرق، مجموعة مؤلفين، المطبعة الكاثوليكية، بيروت/ 1998
- 8- تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، محمد باشا الجزائري، دمشق/ 1960.

مع كل ذلك فإننا نجد بالمقابل من ينفي ذلك نفيًا قاطعاً ويؤكد أن الوثائق مزورة وأن خط الأمير مقلد، لتشويه صورة نضال الأمير ومقاومته للاستعمار، من الأدلة التي يوردونها مقال للأمير سعيد حفيد الأمير عبد القادر نشره في مجلة الحقائق عام 1869 م، فيه نفي صريح وتبرئة للأمير مما نسب إليه: "دُعي الأمير عبد القادر مع من دُعي من ملوك لحضور احتفالات فتح ترعة السويس وبينما الأمير عائدًا لسورية عن طريق الإسكندرية، اغتنمت الجمعية الماسونية فرصة وجوده في ذلك القطر فأوفدت إليه هيئة من أعضائها تكلمت أمامه عن مبادئ الماسونية وخدمتها للإنسانية، فأثنى الأمير على ما ادّعته من خدمات للإنسانية فاتخذ بعض المنتمين لهذه الجمعية من هذه الزيارة إشاعة حسنة لدخول الأمير في جمعيتهم وبالتأكيد هذا الزعم باطل"³⁷.

وما أريد أن أقوله في هذا المجال: أن الماسونية، قبل ظهور حركة القومية العربية، كانت تعني للعرب والمسلمين شيئاً مختلفاً تماماً عما أخذت تعنيه فيما بعد، ففي إطار المحافل الماسونية كانت البدايات الأولى لطرح مفاهيم الاستقلال والتحرر والدولة المدنية، ولو نظرنا إلى جداول الأسماء التي تطرحها كتب الماسونية لوجدنا عدداً كبيراً من زعماء سوريا والشرق العربي حتى أواخر النصف الأول من القرن العشرين³⁸، كانت أسماؤهم ضمن منتسبي المحافل الماسونية الشرقية.

14- دمشق تحتضن الأمير حياً وميتاً:

وإلى الأمير أجله بدمشق ليلة السبت 19 رجب 1300 هـ الموافق 24 أيار 1883 م عن عمر يناهز 76 عاماً، في منزله الصيفي في دُمر، فعم الحزن والأسى كل من عرف أو سمع بالأمير عبد القادر، وبعد الصلاة عليه في جامع بني أمية، حمل جثمانه إلى الصالحية في موكب شعبي ورسعي كبير حيث خرجت دمشق عن بكرة أبيها لتودع الأمير العظيم إلى مثواه الأخير، وبدأت برقيات التعازي تنهال على أسرة الأمير من ملوك العالم والوزراء والعلماء ينعون فيها الفقيد العظيم، مشيدين بخصاله الحميدة³⁹.

وقد دفن بجوار الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي بمنطقة الصالحية في سفح جبل قاسيون بناء على وصيته. وتم دفنه تحت القبة قريباً من ضريح الشيخ. وهذه الوصية تعد إشارة أخيرة من إشارات الأمير الكبيرة المعنى والدلالة على انتمائه للشيخ الأكبر ومحبه له وإتباعه لأفكاره.

- ⁹ - تراجم الأعلام المعاصرين، أنور الجندي، الأنجلو مصرية، القاهرة/ 1970
- ¹⁰ - حياة الأمير عبد القادر، شارل هنري تشرشل، ترجمة وتقديم: أبو القاسم سعد الله. الدار التونسية للنشر/ 1989
- ¹¹ - الحقيقة والمجاز، الشيخ عبد الغني النابلسي، دار المعرفة، دمشق، 1997.
- ¹² - ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، دار التراث، دمشق/ 2002.
- ¹³ - الرحلة، ابن جبير، دار الكتب العلمية، بيروت/ 1999
- ¹⁴ - الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، مطابع دار البعث/ 1995
- ¹⁵ - السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقرئ، دار المعارف، القاهرة/ 1998
- ¹⁶ - صفحات من جهاد الصوفية والزهاد، د. محمد أحمد درنيقه، جروس برس طرابلس 1994
- ¹⁷ - عبد القادر الجزائري، د. عمار الطالبي. دار الغرب الإسلامي، بيروت/ 2005
- ¹⁸ - علماء دمشق، محمد سعيد الأغا، دار القلم، دمشق/ 1962
- ¹⁹ - عمران دمشق، أحمد الصواف، دار دمشق، دمشق/ 1963
- ²⁰ - فارس الجزائر الأمير عبد القادر، العماد مصطفى طلاس، دار طلاس، دمشق/ 1986
- ²¹ - الفتح القسي في الفتح القدسي، العماد الأصفهاني، دار الثقافة، بيروت/ 1980
- ²² - مجلة المعرفة، السنة/ 5، العدد/ 54، وزارة الثقافة، دمشق/ 1967
- ²³ - معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت/ 1986
- ²⁴ - منتخبات تواريخ دمشق، محمد أديب الحصني، دار الافاق العربية، القاهرة/ 1979
- ²⁵ - المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، الأمير عبد القادر الجزائري، دار الكتب العلمية، بيروت/ 2004
- ²⁶ - الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، حسين عمر حمادة، دار الوثائق، دمشق/ 1995
- ²⁷ - نفح الطيب، المقرئ، دار احياء التراث، بيروت/ 1997

الهوامش:

- ¹⁰ - الأنس الجليل، العليبي، 2/ 397، دار البشائر/ دمشق/ 3.
- ¹¹ - الروضتين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سهيل زكار، 19/ 288، مطابع دار البعث/ 1995
- ¹² - علماء دمشق، محمد سعيد الأغا، 309، دار القلم، دمشق/ 1962
- ¹³ - كانت تدمر في ذلك الوقت قرية تضم تجمع بدوي صغير تقيم بيوتها داخل جدران معبد بل، ضمن المنطقة الأثرية.
- ¹⁴ - الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، يحي بوعزيز، 210، الدار العربية للكتاب، تونس/ 1983 وأيضاً: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، محمد باشا الجزائري، 1/ 176، دمشق/ 1960. كتب هذه السيرة الذاتية للأمير عبد القادر ابنه محمد باشا، وقد قرأ الأمير السيرة وباركها.
- ¹⁵ - حياة الأمير عبد القادر، شارل هنري تشرشل، 212، ترجمة وتقديم: أبو القاسم سعد الله. الدار التونسية للنشر/ 1989
- ¹⁶ - عبد القادر الجزائري، د. عمار الطالبي، 218، دار الغرب الإسلامي، بيروت/ 2005
- ¹⁷ - منتخبات تواريخ دمشق، 2/ 74، محمد أديب الحصني، دار الافاق العربية، القاهرة/ 1979
- ¹⁸ - عمران دمشق، أحمد الصواف، 2/ 66، دار دمشق، دمشق/ 1963
- ¹ - كان تعبير مغربي يشمل سكان غرب الدولة العربية الإسلامية من ليبيا وحتى الأندلس.
- ² - الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، د. علي أحمد، 177، دار طلاس، دمشق/ 1989
- ³ - ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 298، دار التراث، دمشق/ 2002. وأنظر أيضاً: معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة: فندلاو، دار الفكر، بيروت/ 1986
- ⁴ - الرحلة، ابن جبير، 174، دار الكتب العلمية، بيروت/ 1999
- ⁵ - الفتح القسي في الفتح القدسي، العماد الأصفهاني، 502، دار الثقافة، بيروت/ 1980
- ⁶ - الرحلة، ابن جبير، 35
- ⁶ - نفح الطيب، المقرئ، 3/ 111 - 112، دار احياء التراث، بيروت/ 1997
- ⁸ - الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، د. علي أحمد، 204، دار طلاس، دمشق/ 1989
- ⁹ - السلوك، المقرئ، 1/ 94، دار المعارف، القاهرة/ 1998

- ³⁶- أكثر من روج لماسونية الأمير هو شارل هنري تشرشل في كتابه: حياة الأمير عبد القادر.
- ³⁷- الأمير عبد القادر الجزائري: متصوفاً وشاعراً، رسالة ماجستير أعدتها فؤاد صالح السيد، بإشراف: د. أهيف سنو، جامعة القديس يوسف، كلية الآداب، بيروت.
- ³⁸- الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، حسين عمر حمادة، دار الوثائق، دمشق/ 1995
- ³⁹- أعلام الصحو الإسلامية، محمد علي شاهين، 214، دار الضياء، بيروت/ 2007
- ¹⁹- أعلام الصحو الإسلامية، محمد علي شاهين، 219، دار الضياء/ 2007
- ²⁰- صفحات من جهاد الصوفية والزهاد، 81، د. محمد أحمد درنيقه، جروس برس طرابلس 1994
- ²¹- تعود ملكية قصر الأمير الآن إلى الاتحاد الأوروبي، وقد تم ترميمه وإعادته كما كان أيام الأمير، وقد خصص الطابق الأول كمتحف لصور ومقتنيات الأمير عبد القادر، أما الطابق الثاني فيحتوي مكاتب للمفوضية الأوروبية.
- ²²- تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، محمد باشا الجزائري، 210/1
- ²³- تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، محمد باشا الجزائري، 214/1.
- ²⁴- في كتاب "المواقف" الذي كتبه الأمير في دمشق، وهو كتابه الصوفي الوحيد، وقد ضمنه أرائه في التصوف، يوضح لنا الكتاب السيرة الصوفية الحقيقية للأمير.
- ²⁵- الخرقه: قطعة قماش ممزقة ترمز للزهد، وتعني انتقال من يتقلدها من نقص الحال إلى الكمال، وأنه تقلد بالأخلاق المحمودة، ولم يكن لها لون مميز لكن فيما بعد اختارت كل طريقة لون يرمز لها، وكان شيخ الطريقة يلبسها لمريده بعد قيامه بعدة مجاهدات ورياضات.
- ²⁶صفحات من جهاد الصوفية والزهاد، د. محمد أحمد درنيقه، 79، جروس برس، طرابلس/ 1994.
- ²⁷- المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، الأمير عبد القادر الجزائري، 215/1، دار الكتب العلمية، بيروت/ 2004
- ²⁸- تاريخ الكنيسة في الشرق، مجموعة مؤلفين، 322، المطبعة الكاثوليكية، بيروت/ 1998
- ²⁹- تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، محمد باشا الجزائري، 201/2
- ³⁰- تراجم الأعلام المعاصرين، أنور الجندي، 251، الأنجلو مصرية، القاهرة/ 1970
- ³¹- مجلة المعرفة، السنة/ 5، العدد/ 54، الأمير عبد القادر أديباً وعالمًا، ممدوح حقي، وزارة الثقافة، دمشق/ 1967
- ³²- تاريخ حمص، الخوري عيسى أسعد، 190/2، المطبعة البطريركية، حمص/ 1958
- ³³- الشيخ عبد الغني النابلسي (1050- 1143 هـ)، حول زيارته لحمص راجع كتابه: الحقيقة والمجاز، 126، دار المعرفة، دمشق، 1997.
- ³⁴- تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، محمد باشا الجزائري، 2/ 150. وهناك رسالة موجهة للأمير من البطل القوقازي محمد شامل وهو منفي في روسيا في كتاب فارس الجزائر الأمير عبد القادر، العماد مصطفى طلاس، 320-321، دار طلاس، دمشق/ 1986
- ³⁵- الماسونية: أو البناؤون الأحرار، تنظيم عالمي يتشارك أفراد أفكار وعقائد حول الأخلاق والتعاون، لكنه يتصف بالسرية والغموض مما جعل التنظيم مجالاً للتكهنات والافتراضات التي فيها من الخيال شيء كثير.